الفصل السادس والعشرون

فيه كتاب ذكر مشاهدة أهل المراقبة (١)

اعلم أن مشاهدةَ المراقبين هى أولُ مراقبةِ المشاهدين، وذلك أنّ مَن كان مقامه المراقبة كان حالُه المحاسبة، ومَن كان مقامه المشاهدة كان وصفه المراقبة.

فأولُ شهادةِ المراقب هو أن يعلم يقينًا أن لا يخلو فى كلِّ وقتٍ وإن قَصُرَ من أحد ثلاثة معان:

[المعنى الأول:] أن يكون لله عزّ وجلّ عليه فرض. والفرضُ على ضربين: شىء أُمر بفعله، أو شىء أُمر بتركه، وهو اجتناب المنهى.

والمعنى الثانى: ندبٌ حُثَّ عليه، وهو المسابقة بخير يقرِّبه إلى الله عزّ وجلّ، والمسارعة بعمل برٍّ يبتدره قبل فَوْته.

والمعنى الثالث: شىء مباحٌ، فيه صلاحُ جسمِه وقلبه.

وليس للمؤمن وقت رابع، فإن أحدث وقتًا رابعًا فقد تعدّى حدود الله، ﴿ومَن يَتَعدَّ حدودَ الله فقد ظَلَم نَفْسَه﴾ [الطلاق:١] ، وقد أحدث فى دين الله سبحانه وتعالى، ومن أحدث فى دين الله فقد سلك غير طريق المتقين. ألم تسمع إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ الَّذى جَعَلَ الليلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أرَادَ أنْ يَذَّكَّرَ أوْ أرَادَ شُكُوراً﴾ [الفرقان:٦٢] فهل ترى بين هذين وقتًا يجهل أو هوى، كما لا ترى بين الليل والنهار وقتًا ثالثًا؟ فالذكر: الإيمان والعلم؛ فهذان ينتظمان جُلّ أعمال القلوب. والشكر: العمل بأخلاق الإيمان وأحكام العلوم، وهذان يشتملان على جميع أعمال الجوارح. قال الله عزّ وجلّ: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣].

(١) انظر: الإحياء ٣٩٣/٤، كتاب المراقبة والمحاسبة. ومدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، ٦٩/٢ ـ ٩٢.

وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران:١٢٣]. وقال: ﴿كَما أَرْسَلْنَا فيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَاذْكُرُونى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لى وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥١ ـ ١٥٢]. وقال الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُمْ﴾ [النساء:١٤٧]. وقال رسول الله ﷺ، وقد عوتب فى طول قيامه حتى تورَّمت قدماه، فقال: «أفلا أكونُ عبدًا شكورًا»؟ ففسر الشكر بالعمل، كما فسر الله عزّ وجلّ العمل بالشكر.

والوقت الثالث الذى هو المباح داخل فيهما؛ لأنه مُعِينٌ عليهما، وبه استقامة العبد فيهما. وقد كان بعض العلماء يقول: لنا فى معاصى الطاعات هَمٌّ وشُغل عن معاصى المخالفات.

فيبتدئ العبدُ المراقب فينظر بيقظته فى أدنى وقتٍ هل لله عزّ وجلّ فيه فرض من أمر أو نهى؟ فيبدأ بذلك حتى يفرغ منه. فإن لم يجد فإنه لا يخلو من نوادب وفضائل، فيبتدئ بالأفضل. فإن لم يكن عمل فى أدنى الفضيلتين فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن يومه لأمسه، ومن ساعته ليومه، ومن دنياه لآخرته، كما أمره مولاه فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾ [القصص:٧٧] أى: لا تترك أن تأخذ نصيبك من الدنيا، ولا تترك أن تأخذ نصيبك للآخرة من دنياك؛ وهو أن تحسن كما أحسن الله إليك، ولا تطلب الفساد فى الدنيا، فتكون قد نسيت نصيبك من الآخرة، فيتركك الله من جزيل ثوابه الذى أعد لأحبابه، كما قال: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، أى تركوه فتركهم. وتركُهم له تركُ نصيبهم منه، وتركه عزّ وجلّ لهم ترك محابِّهم من الآخرة.

فيبتدئ العبدُ الفَطِن، فيأخذ من عمره ووقته فيجعله لآخرته التى أيقن بها، ثم يأخذ من وقته أعلى ما فيه مما يختص به الوقت، ولا يوجد إلا فيه، ويفوت دركه بفَوْت وقته، وهو أفضلُ ما يقدر عليه مما أدّاه علمه إليه، فيجعله لمولاه.

ثم إن العبدَ لا يخلو فى كل وقت وإن قلَّ من أحد مقامين: مقامِ نعمة، أو مقامَ بليَّة. فحاله عن مقام النعمة الشكر، وحاله عن مقام البلية الصبر. ثم ليس

يفقد أحد مشاهدتين: شهودِ نعمة، أو شهودِ منعم. من حيث لا يخلو من وجودِ مالك وحضورِ مملوك. فعليه الخدمة للموجود، وعليه الحضور فى خدمة المعبود. والمراقبة علامةُ الحضور، والمحاسبة دليلُ المراقبة.

ويكون له أيضًا فى أدنى أوقاته، وهو الوقت الثالث الذى هو لمباحه، وهو أدنى أحوال المؤمن، يكون له فيه مشاهدة مُنعم، أو شُهود نعمة، لئلا يذهب وقته هذا أيضًا فارغًا من دنياه، ولا يعود عليه شىء من ذكر مولاه، أو يذكر نعمةً تدلّه على منعم أو تخرجه إليه، فينفعه ذلك فى عقباه، إذ العاقبة للمتقين.

فإن شَهِد مُنعمًا اقتطعه الحياء بالسكينة والوقار للهيبة، وهذا مخصوص بخصوص. وإن شَهِد نعمةً استغرقه بالشكر والاعتبار، فكان لديه تبصرة وتذكار؛ وهذا لعموم الخصوص، قال الله عزّ وجلّ فى وصف الأوّلين: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إلى الله﴾ [الذاريات:٤٩ ـ ٥٠]. وقال فى المقام الثانى: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ الله إِلهًا آخَرَ﴾ [الذاريات:٥١]. وقال فى مقام الأوّلين: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون:٨٨]. وقال فى وصف الآخرين: ﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٥].

وقد روينا فى الأثر من صفات العاقل وحال المراقب وحشو الأوقات بما ينبغى أن تملأ به جملُ ما ذكرناه من حديث أبى ذر الطويل: «ولا يكون المؤمن ظاعنًا إلا فى ثلاث: تزوُّد لمعاد، أو مرمَّة لمعاش، أو لذة فى غير محرم». وبمعناه: وعلى العاقل أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه عزّ وجلّ، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكّر فى صُنع الله عزّ وجلّ. وساعة يخلو فيها للمَطعَم والمشرب؛ فإن فى هذه الساعة عونًا له على الساعات. وفيه أيضًا ثلاث مجملات من صفة العاقل، ومن علامة العاقل: أن يكون مقبلاً على شانه، حافظًا للسانه، عارفًا بزمانه. وفى بعضها: مكرمًا لإخوانه.

فأمّا وقت المباح من الأوقات فالنوائب والحاجات تَطْرُقه به، والفاقات تدخله

عليه، فلا يتكلَّفه قبل وقته، فيشغله عن وقته.

ثم إنّ العِبادَ فى مشاهدة المُلْك على أربع مقامات: كلّ عبد يشهد الملك من مقامه بعين حاله.

فمنهم من ينظر إلى المُلْك بعين التبصرة والعبرة، فهؤلاء أولو الألباب، الذين كشف عن قلوبهم الحجاب، وهم أولو الأيدى والأبصار، الذين أقامهم مقام الاعتبار، وهذا مقام العلماء الذين هم ورثة الأنبياء.

ومنهم من ينظر إلى المُلْك وأهله بعين الرحمة والحكمة، وهذا مقام الخائفين.

ومنهم من ينظر إلى المُلْك وأهله بعين المقت والبغضة، وهذا مقام الزاهدين.

ومنهم من ينظر إلى المُلك بعين الشهوة والغبطة، وهذا مقام الهالكين، وهم أبناء الدنيا الذين لها يسعون، وعلى فوتها يتحسرون.

فإن أُعطى العبد النظر إلى المُلْك بعين العبرة والحكمة أدخله المَلِكُ على المُلْك، فاستغنى به عمّا سواه. وإن أُعطى الخائف النظر إلى المُلك بعين الرحمة اغتبط بمقامه، وعظُمَت لربه تعالى عليه النعمةُ. وإن أُعطى الزاهد النظر إلى المُلك بعين البغضة أخرجه المَلِكُ عن المُلْك بالزهد فيه، فعوّضه من فوت المُلْك الصغير دَرْكَ المُلك الكبير. ومَنِ ابتُلى بالنظر إلى المُلك بعين الغبطة والحسرة أوقعه المَلِكُ فى الهلَكة، فسلك طريق المهالك.

ومن شاهد معنى خُلُق من أخلاق الذوات، أو معنى وصف من الصفات، كان مقتضاه ما يوجب الخلق أو الوصف من شهود نعيم أو عذاب، وهو مقام له فى التعريف يرفعه إلى مقام التعرف. وهذه شهادة العارفين من كل ما شهدوه من الأفعال التى تدل على معانى الأخلاق والأوصاف؛ لأنّه أظهرها عنه، ليُستَدل عليه بها، ويُنظَر إليه منها.

فأمّا من شَهِد شهوةً من شهوات النفس بعين الهوى أخرجته إلى الأهواء، فتخطفه الشياطين ، وهوت به الريحُ فى مكان سحيق ، وتنكَّب طريقَ المسالك إلى المولى، التى تخرجه إلى القريب، وتقعده عند الحبيب فى مَقعدِ صِدْق عند مليك مُقتدر.

فمن فاته القربُ وقع فى التيه والبُعدِ، فهو اليائس المغبون، الخائن المفتون، الذى يكون أبدًا يومه شرًا من أمسه، وغده شرًا من يومه. فالموت خيرٌ له من حياته؛ لأن حياتَه عن الحبيب تبعده، وبقاءه عن السبيل يصدّه، ووَجْدَهُ لهواه يفقده، وظهورَ نفسهِ عليه من السّوابق يُقعده؛ لأنه إذا كان فى إدبار، وكان إدباره فى إقبال، فقد فاته عمره عن آخره، كفوت وقت واحد، وفوت شىء واحد؛ لأن العمر ليس مما يتأتى فوته دفعة واحدة كشىء واحد، لأنه ينشأ وقتًا بعد وقت، وإنّما يفوت جزءًا جزءًا على حكمة من الله عزّ وجلّ، وتمهُّل واستدراج منه، وقتًا بعد وقت، ويومًا بعد يوم، يستدرجه فى ذلك كما يصعد الدّارج فى الدَّرَج مرقاة مرقاة. كذلك يشغله فى وقتٍ عنه، ويفرّغه وقتًا آخر لغيره، ويذكّره فى وقت سواه، ويُنسيه وقتًا آخر إياه، فشغلُه حينئذ كفراغه، وذكره يومئذ كنسيانه. وعلى هذا سائرُ أوقاته، تارةً يقطعه عنه، وتارةً يصله بغيره، حتى تفنى الأيام بالفوت، وتنقضى الأوقات إلى الموت. وفى ذلك يُسبل عليه الستر ليغترّ، ويسبغ عليه النعم كيلا يعلم، ويديم له العَوَافى لئلا يفطن، ويبسط له الأمل ليزداد من سوء العمل، ويقبض عنه الأجل ليقبض منه الوَجَل، وينشر له الرجاء، ويطوى عنه الخوف، حتى يبغتهم فجأة من حيث أمّنهم، ويأخذهم بغتة فى حال غَمْرتهم، كما قال: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

ومن معنى ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أى: لما تركوا ما وُعظوا به وخُوِّفوا أسبغنا عليهم النعم، وأنسيناهم الشكر، فترادفت منهم الذنوب، وأنسيناهم الاستغفار، ثم قال: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ أى: سكنوا إلى ذلك واطمأنوا، ولم يريدوا التحويل عنه ولا الاستعتاب منه ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أى: فجأة فى حين أمنهم. وقيل: بغتة بعد أربعين سنة، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] متحيرون باهتون آيسون من كل خير.

واعلم أن العبد إذا كان بعد ساعة شرًا منه قبلها، وبعد يوم شرًا منه قبله، ثم

لم يُستعتب ولم يُتدارَك، كانت أوقاته كلّها وأيامه كيومٍ واحدٍ فى الشر ووقتٍ سرمدٍ فى السوء، فكان كمن فات عمره كلّه كفَوْت وقتٍ واحد منه؛ لأنه على هذا الوصف يكون فوَّت العمر لتراخيه وقتًا بعد وقت، وينساه شيئًا بعد شيء، ولتربية العبد بأوقاته وقتًا بعد وقت، إلا أنها فى آخر الحساب ومجمله كيوم واحد إضاعة، فكان مثَله كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]. وكمن كان حاله الغفلة عن الوعد والوعيد، فلما كُشف عنه الغطاء حار بصرهُ وبُهت، واحتدَّ وبرق، لمعاينة ما كان عنه غَفَل، وحسرة على ما فيه فرَّط، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢] قيل: محدد إلى أعمالك السيئة أو ثقتك. وقيل: حديد إلى لسان الميزان يتوقع النقص والرجحان، وكان كمن قال تعالى فى قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ الأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم:٣٩]، قيل: جاءهم الموت وهم مشغولون بأمور الدنيا. وقيل: كانوا متشاغلين فى شأن النساء، وبوصف من قيل له: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِىُّ﴾ يعنى: أمانى الهوى ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ [الحديد:١٤] أى: قَدِم الموت ولم تقدِّموا له شيئًا تقدمون به عليه، فمثلهم كمن وصفه بالإفلاس وأخبر عنه بالإياس فى قوله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور:٣٩].

وقد كان أبو محمد يقول: لا يبلغ العبد منازل الصدِّيقين حقيقةً من هذا الأمر حتى يكون فيه هذه الأربع: أداء الفرائض بالسّنة، وأكلُ الحلال بالورع، واجتنابُ النهى فى الظاهر والباطن، والصبرُ على ذلك إلى الممات.

وكان الحسن يقول: والله ما لعمل المؤمن انتهاء دون الموت. والله ما المؤمنُ الذى يعمل الشّهرَ والشهرين والسنة والسنتين، إنّما المؤمنُ المداومُ على أمر الله، الخائفُ من مكر الله. إنّما الإيمان شدةٌ فى لين، وعزمٌ فى يقين، واجتهادٌ فى صبر، وعلمٌ فى زهد.

وكان عمر رضى الله عنه إذا تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ

﴿اسْتَقَامُوا﴾ [الأحقاف:١٣] يقول: قد قالها الناس ثم رجعوا. فمن استقام على أمر الله فى السر والعلانية، والعسر واليسر، لم يخف فى الله لومة لائم.

وقال مرة: استقاموا والله لربهم، ولم يروغوا روغان الثعالب.

وقال بعض العلماء: مَنْ كان طلبُ الفضائل أهمَّ إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع، ومَنْ شُغل بغيره عن نفسه فقد مُكر به.

وقال سفيان الثورى وغيره: إنّما حُرموا الوُصولَ بتضييع الأصول.

فأفضلُ شيءٍ للعبد معرفته بنفسه، ووقوفه على حدّه، وإحكامه لحاله التى أقيم فيها. وابتداؤه بالعمل بما افتُرض عليه، بعد اجتنابه ما نُهى عنه، بعلم لم يدبره فى جميع ذلك، ووَرَع يحجزه عن الهوى فى ذلك. ولا يشتغل بطلب فضل حتى يفرغ من فرض؛ لأن الفضل لا يصحّ إلا بعد حَوْز السّلامة، كما لا يخلص الربح للتاجر إلا بعد حصول رأس المال. فمن تعذرت عليه السلامة كان من الفضل أبعدَ، وإلى الاغترار أقربَ.

وقد تلتبس الفضائل بالفرائض لدقة معانيها، وخفىّ علومها، فيقدِّم العبدُ النفلَ وهو يحسب أنه الواجب. فمن ذلك أن أبا سعيد رافع بن المعلى كان قائمًا يصلى، فدعاه رسول الله ﷺ فلم يجبه، فظن أن وقوفه بين يدى الله عزّ وجلّ بالغيب أفضل له. فلما سلّم جاءه، فقال له رسول الله ﷺ: ما منعك أن تجيبنى حين دعوتك؟ فقال: كنت أصلى. فقال: ألم تسمع الله عزّ وجلّ يقول: ﴿اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟

فكان رسول الله ﷺ دعاه وهو فى الصلاة؛ ليفيده باطن العلم، أو لينظر مبلغ علمه كيف يعمل، وكان إجابته لرسول الله ﷺ أفضل له من صلاته؛ لأن صلاته نافلة له، فهو مطيع لله عزّ وجلّ فى الغيب باختياره، وإجابته لرسول الله ﷺ فريضة عليه، فهو مطيع لله تعالى فى الشهادة بإيجابه. ففَضْلُ استجابته لرسول الله ﷺ على صلاته لنفسه كفضل الفرض على النفل. وقد قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا

﴿يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح: ١٠]. والله تعالى معه فى المكانين معًا، وهو عند الرسول عليه الصلاة والسلام على يقين. فعبادة الله عزّ وجلّ ههنا أبلغ فى مرضاته، وأثوبُ له فى آخرته.

وفى هذا الحديث دليل أن الخبر إذا ورد فى أمر كان على جملة عمومه وكلية ما تعلق به، حتى تخصّ السنة أو الإجماع بعض شأنه. ومن ذلك أن قول الله عزّ وجلّ: ﴿اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] أنّ ظاهره مقصور على الاستجابة للرسول ولله بالإيمان بالطاعة فى أوامر القرآن، لا الإجابة له فى التصويت خاصة فى الصلاة، وهذا هو الذى حمله أبو سعيد بن المعلى عليه، وتأوله من الآية فأشكل عليه.

ومثل هذا فعلُ عَمّار فى التيمم، لما نزلت آية الإباحة للتيمم فى صلاة الفجر وهُم فى سَفر، فقال عزّ وجلّ: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: ٤٣]، ولم يكن يسمع من النبى ﷺ فى تخصيص بعض اليد شيئًا، قال: فتيممنا إلى المناكب، واستوعب جملة اليد، لعموم الخطاب، حتى أخبر النبى ﷺ بذلك، فأمرهم بالتيمم إلى المرفقين، وفى خبر: إلى الزندين، باختلاف الروايتين، فخص بعض اليد، فلذلك اختلف العلماء فى تبعيض اليد فى المسح.

وكذلك العمل فيما ورد مجملاً أن يُستعمل فى الجملة حتى تخصه السنة. فمن ذلك ما روى أن رجلين على عهد رسول الله ﷺ تآخيًا فى العبادة، فاعتزلا الناس، فقال أحدهما لصاحبه: هلم اليوم فلننفرد عن الناس، ونلزم الصمت فلا نكلم من يكلمنا، فإنه أبلغ فى عبادتنا. قال: فاعتزلا فى خلوة، وصمتا، فمر بهما رسول الله ﷺ، فسلم عليهما، فلم يردا عليه السلام. قال: فسمعناه يقول حين جاوزنا: هلك المعتمّقون المتنطّعون، فاعتذرا إلى رسول الله ﷺ، وتابا من ذلك إلى الله عزّ وجلّ.

ومثل ذلك ما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يَعُسُّ ذاتَ ليلة،

فنظر إلى مصباح أبيض فى خَلَل بابٍ، فاطلع، فإذا قوم على شراب لهم، فلم يدر كيف يصنع، فدخل المسجد، فأخرج عبد الرحمن بن عوف فجاء به إلى الباب فنظر، وقال له: كيف ترى أن نعمل؟ فقال: أرى والله أنا قد أتينا ما نَهانا الله عنه، لأنّا تجسسنا على عورة فاطّلعنا عليها وقد سترها الله دوننا، وما كان لنا أن نكشف ستر الله عزّ وجلّ. فقال: ما أراك إلا قد صدقتَ، ما أنفذ عنك[1]، فانصرفا. وفى لفظٍ آخر أنه قال له: أرى أنَّا قد عصينا الله ورسوله، ونهانا رسول الله ﷺ عن التجسس، فقال: صدقت، فأخذ بيده وانصرف.

وروينا نحو هذا أن عمر رضى الله عنه كان يعسُّ ليلة مع ابن مسعود، فاطَّلع من خلل الباب، فإذا شيخ بين زِقٍّ خمر وقَيْنة تغنِّيه، فتسوَّر عليه، وقال: ما أقبح بشيخ مثلك أن يكون على مثل هذه الحال. فقام إليه الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، أنشدك الله إلا أنصفتنى حتى أتكلم. فقال له: قل. فقال: إن كنتُ قد عصيتُ الله عزّ وجلّ فى واحدة فقد عصيتَه أنت فى ثلاث. قال: وما هى؟ قال: قد تجسست وقد نهاك الله عزّ وجلّ عن ذلك. وتسوّرت وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة:١٨٩]. ودخلت بغير إذن وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧]. فقال عمر: صدقت، فهل أنت غافر لى ذلك، فقال: غفر الله لك، فخرج عمر وهو يبكى حتى علا نشيجه، وهو يقول: ويل لعمر إن لم يغفر الله له، تجد الرجل كان يتخفَّى بهذا عن ولده وجاره، فالآن يقول: رآنى أمير المؤمنين، ونحو ذلك.

وجاء فى الخبر: «إذا دُعى أحدُكم إلى طعامٍ، فإنْ كان مُفْطِرًا فليُجِب، وإن كان صائمًا فليقل: إنى صائم». فأمره بإظهار عمله وهو يعلم أن الإخفاء أفضل، ولكن إظهار عمله من حيث لا يؤثر فى قلب أخيه وَجْدًا أفضل من إخفائه لنفسه مع تأثير ذلك فى قلب أخيه؛ لتفضيل المؤمن وحرمته على الأعمال، إذ الأعمال

(١) «ما أنفذ عنك» ليست فى (ك). والمعنى: لا أدع رأيك وأتجاوزه.

موقوفة على العامل، وإنما يُعطى الثواب على قدر العامل لا على قدر العمل، لتضعيف الجزاء لمن يشاء على غيرِه فى العمل الواحد. فدلّ ذلك أنّ المؤمنَ أفضل من العمل، فقيل له: ارفع التأثير والكراهة عن قلب أخيك بإظهار عملك، فهو خير لك من إخفاء العمل مع وَجْد أخيك عليك، لأنّ أخاك إذا دعاك إلى طعام صنعه لك، فلم تجبه ولم تعتذر إليه عذرًا بيّنًا يقبله منك ويعرفه، شقّ عليه إن كان صادقًا فى دعائك.

وبمعنى هذا من خفىِّ الأعمال ما يُحكَى عن بعض السلف: أنه كان يكون[1] فى الجماعة، فيقرأ فى نفسه سرًا لئلا يطلع على أعماله أحد، فإذا مرّ بآيةٍ فيها سجدة سجدَ بين الملأ، فكنا نعرف بسجوده أنه يقرأ. فلعل فارغًا قليل الفقه يقول: إن هذا قد أظهر عمله، إذ فعل ما يدل عليه، فلو ترك السجود ليخفى عمله كان أفضل، لأنه قد أظهر ما أخفاه. فهذا يدل على جهله بالمعاملة. وقد سمعتُ بعضَ من يدَّعى العلم[2] يطعن على هذا بفعله، بمعنى ما ذكرناه من القول. وهكذا يكون علم المريدين القصيرى العلم[3].

وليس الأمر كما قدّره هذا المنكر لسجوده، بل القائل المنكر لفعله قليل الفقه بدقائق الإخلاص جاهل بطريقة العاملين من العارفين، والعامل الذى نقل عنه هذا الفعل فقيهٌ مُخْلص، وذلك لأنّه قد حاز الفضلين معًا، لأنه كان فاضلاً فيما أخفى، إذ ابتدأ عمله بالخفية، فلما جاء السجود الذى لا يكون إلا ظاهرًا لم يصلح أن يترك قربةً إلى الله عزّ وجلّ من أجل الناس، فكان يسجد كما أُمر به، ويقرأ كما نُدب إليه، فصار فاضلاً فى الحال الثانى، لأنه أظهر لأجل الله عزّ وجلّ كما أخفى لأجله، ولأنه ترك مراقبة الناس ولم يترك عمله لأجلهم. ولو كان الفضل فى ترك السجود لإخفاء العمل كان الأفضل لمن دُخل عليه فى منزله وهو يصلى أن يقعد لأجلهم.

---

(١) قوله: «كان يكون» أسلوب عربى فصيح عند القدماء.

(٢) فى (ط): «وقد سمعت بعض العلماء».

(٣) هذه الجملة ليست فى (ك).

وقد وردت السنة فى ذلك أن له أجرين: أجر السر، وأجر العلانية. كيف، وقد كانوا يعدون أن الرياء ترك العمل لأجل الناس، فأما العمل لأجلهم فشرك. وقد قيل: لا تعمل للرياء، ولا تترك العمل للحياء. فالحياء من الخَلْق شرك، كما أن الحياء من الخالق إيمان. وأيضًا لو أنه أطاع العدوّ فى ترك العمل لأجل الناس أطاعه مرة أخرى فى العمل لأجلهم. ومَثَل هذا كَمَثَل من كان يصوم ويصلى يومه أجمع فى منزله، لا يعلم به مخلوق، فلو نوى الاعتكاف ليضمه إلى صومه خرج إلى المسجد فكان يصلّى مقيمًا فيه، فظهر الناس على عمله، فلم يكن ليدع ما نواه من العكوف فى المسجد لأجل نظرهم إليه، ولم يضره ظهور عمله، لثباته على نيته، ولمزيد الاعتكاف، إذا كان عالمًا متمكنًا.

وأيضًا فإن الإمام المتمكِّن المقتدَى به لا يضره ظهور الناس على أعماله، إذا لم يقصد ذلك ولم يحب مَدْحهم، وربما كان له أجران فى ذلك لتنبيه الغافلين عن الذكر، وتشويق العاملين إلى البر. كيف وعند بعض العلماء أن سجود القرآن فرض، وأن على مَنْ سمع آية سجدة أو تلاها، وكان على غير وضوء، أن يسجد لها إذا توضأ.

ونحو هذه المعانى ما هو حال للعبد وأولى به من حال غيره، ما رواه أبو نصر التّمّار أن رجلاً جاء يودع بشرَ بن الحارث، وقال: قد عزمتُ على الحج، أفتأمرنى بشىء؟

فقال له بشر: كم أعددتَ للنفقة؟ قال: ألفى درهم.

قال: فأى شىء تبتغى بحجك! نزهة، أو اشتياقًا إلى البيت، أو ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ؟ قال: ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ.

قال: فإن أصبتَ رضا الله وأنت فى منزلك، وتنفق ألفى درهم، وتكون على يقين من مرضاة الله عزّ وجلّ، أتفعل ذلك؟ قال: نعم.

قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس؛ مدين يقضى بها دَيْنَه، وفقير يَرُمُّ شَعَثَه، ومَعيل يحيى عياله، ومربِّى يتيم يُفرحه. وإن قوىَ قلبك أن تعطيها لواحد فافعل،

فإن إدخالَك السرور على قلب امرئ مسلم، وتغيث لهفان، وتكشف ضر محتاج، وتعين رجلاً ضعيفَ اليقين، أفضلُ من مائة حجة بعد حجّةِ الإسلام. قم فأخرجها كما أمرناك، وإلا فقل لنا ما فى قلبك. فقال: يا أبا نصر، سفرى أقوى فى قلبى.

فتبسَّم بِشرٌ، وأقبل عليه، وقال له: المالُ إذا جُمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس إلى أن تقضى به وطرًا تُسرع إليه، فظاهرت أعمال الصالحات، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين. [فبكى الرجل][1].

وفى نحوه قيل لبشر أيضًا: إن فلانًا الغنى كثير الصوم والصلاة، فقال: المسكين ترك حاله ودخل فى حال غيره، إنما حال هذا إطعامُ الطعامِ للجياع، والإنفاق على المساكين، فهذا أفضلُ له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدّنيا ومنعه للفقراء.

وقد يكون اختفاءُ الأوجب من الفرائض والتباسُه بالفضائل محنة من الله عزّ وجلّ لعباده، وحكمة له فيهم، فيرتكبون التأويل للسَّعَة، ويتركون الضيق لخفائه عليهم، لينفذ فيهم العلم، ويجرى عليهم الحُكم، ويكون ذلك تأديبًا لهم، وتعريفًا ومزيدًا فى التسليم وتوفيقًا. وقد قال الله تعالى فيما عتب على نبيه ﷺ ووعظه وزجره فى قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [عبس: ١ ـ ٣].

يقال: إن رسول الله ﷺ لم يغتمَّ فى عمره كغمِّه حين أنزل عليه سورة عبس، لأن فيها عتبًا شديدًا على مثله، لأنه الحبيب الرشيد، ومع ذلك لم يقصده فى الخطاب فيكون أيسر للعتاب، بل كشف ذلك للمؤمنين، ونبّه على فعله عباده المتقين؛ لأن معنى قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ أى: انظروا أيها المؤمنون، أو اعجبوا إلى الذى عبس وتولى أن جاءه الأعمى.

(١) ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

ولذلك رُوى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلغه أن بعض المنافقين يؤمُّ قومه فكان لا يقرأ بهم إلا بسورة عبس، فأرسل فضرب عنقه، يستدل بذلك على كفره، ليضع من شأنِ الرسول ﷺ بذلك عنده وعند قومه.

ومثله قوله عزَّ وجلَّ عاتبًا على رسوله ﷺ: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣]، ونحوه: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحريم:١]، وبمعناه قوله عزّ وجلّ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]، حتى قالت عائشة رضى الله عنها: «لو كتم رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن كتم هذه الآية».

ومن أعجب ما سمعتُ فى هذا المعنى ما حدثونا فى الإسرائيليات عن وهب ابن منبه اليمانى، أن سليمان بن داود عليهما السلام لما قبضه الله عزّ وجلّ خلّف رجالاً من ولده يعمرون بيت المقدس ويعظّمونه برهة من الدهر، حتى خلَفه بعدهم رجلٌ من ولد سليمان، فخالف طريقة آبائه، وترك شريعتهم، وتكبَّر فى الأرض وطغى، وقال: بنى جدى داود وأبى سليمان مسجدًا، فما لى لا أبنى مسجدًا مثل ما بنوا، وأدعو الناس إلى شريعتى كما دعوا؟ فبنى مسجدًا يضاهى به بيت المقدس، وادّعى على الله عزّ وجلّ أنه أمره بذلك، وصرف الناس إليه، وبذل لهم الأموال، وأخرب مسجد بيت المقدس وهجره، فدخل الناسُ فى دينه رغبةً ورهبةً.

قال: فابتعث الله إليه نبيًا من بعض أهل القرى، فقال: اركب أتانك هذه، وأتِ هؤلاء القوم أحفلَ ما يكونون، فنادِ فى مسجدهم ومَجمعهم بأعلى صوتك: يا مسجد الضرّار، إن الله عزّ وجلّ حلف باسمه: ليوحشنَّك من عُمَّارك، وليقتلنّ أهلك فيك، وليَشدَخنَّهم بخَشَبك وجَندلك، ولتَلَغَنَّ الكلابُ دماءهم وتأكلنَّ لحومهم فيك. وناد فى المدينة بأعلى صوتك بمثل ذلك، ولا تأكل ولا تشرب ولا تستظل ولا تنزل عن أتانك هذه حتى ترجع إلى قريتك التى خرجت منها.

قال: ففعل ذلك، فثار الناس إليه يضربونه بالخشب، ويشجونه بالحجارة، وهو

على أتانه لا ينزل عنها، فناله على ذلك أذى كثير وضرب عظيم، ثم كرّ راجعًا فى آخر النهار يؤمُّ قريته التى خرج منها، وقد أدّى الرسالة، وصبر على الضرب والبلاء لله عزّ وجلّ.

فلما كان ببعض الطريق، سمع به نبى آخر كان فى بعض القرى، استقبله وسلّم عليه، فقال: إنّك قد أدّيت رسالة ربك، وإنّك أمضيت أمره، وإنّك قد نَصَبْتَ ولقيت عناء من هؤلاء القوم؛ وأنت جائع عطشان، تسيل دماؤك على جسدك وثيابك، فاغْدُ معى إلى منزلى، فكُل واشرب واسترح واغسل جسدك وثيابك. فقال: إن الله عزّ وجلّ لما أرسلنى قد كان عهد إلىّ أن لا آكل ولا أشرب ولا أستظل حتى أرجع إلى أهلى. فقال له النبى عليه السلام: فإنّى من أهلك، لأننى نبى مثلك، وأخوك فى الدين، فلا أرى الله عزّ وجلّ عنَى بذلك إلا القوم الذين بعثك إليهم، لأنهم أعداؤه، فنهاك أن تأكل من طعامهم، وتستظل عندهم ولا أحسب حرّم عليك دخول منزلى ولا الأكل من طعامى، لأنى شريكك فى الأخوّة والنبوّة. قال: فصدّقه، وانصرف معه إلى منزله.

فلما وضع الطعام بين يديه، وأهوى ليأكل عن جوعٍ شديدٍ قد أضرّ به، أوحى الله عزّ وجلّ إلى ذلك النبى الذى دعاه إلى منزله: قل له: آثرت شهوتك وبطنك على أمرى، ألم أعهد إليك أن لا تنزل ولا تستظل ولا تأكل حتى ترجع إلى قريتك التى خرجت منها، ولولا أنك اجتهدت برأيك وقلت بمبلغ علمك لَعمَّكُما العقابُ، وأنت أقل عندى عذرًا منه[1]، لأنّى عهدتُ إليه، فآثر هواه وشهوته وترك عهدى.

فأخبره النبى عليه السلام بما أُمر، فوثب مذعورًا يجرُّ إزاره، وجعل يرحِّل أتانه ويعجّل ولا يعقل ما هو فيه، فركبها طاردًا لها على وجهه، لجوعه وعطشه، ودماؤه على ثيابه وجسده، لا ينثنى. فلما هبط من عقبة تحتها غيضة عارضه سَبُع نافترسه، وانتصب السبع مقعيًا على قارعة الطريق يزأر، يحرس أتانه ورَحْلَه، كلما أقبل إنسان زأر عليه الأسد حتى يطرده. فسمع بخبره ذاك النبى، فأقبل

(١) فى (ط): «وهو أقل عندى عذرًا منك» وكذلك فى (ك) ولكنها مصححة فى حاشيتها.

نحوه، فلما نظر إليه الأسد انصرف عنه، وخلّى بينه وبينه.

قال: فكفَّنه ووَاراه، وانصرف برحله وأتانه إلى أهله، فقال: يا رب، عبدك هذا الذى بلَّغ رسالتك، وأمضى أمرك، وقد كان أجهده البلاء، فخالف ما أردتَ فلم يعلم، فعاقبته بهذه العقوبة. فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: ليست هذه عقوبة، ولم أفعل ذلك لهوانه علىّ، ولكن هذه مغفرة ورحمة، إنّه خالف أمرى، وكان قد اقترب أجله، فكرهتُ له أن يلقانى على المخالفة، فألقاه بما يكره، فقيَّضتُ له كلبًا من كلابى، فطهّره للقائى. فكان ذلك له عندى شهادة، ودرجة فوق نبوته.

فقال: سبحانك وبحمدك، أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

فالعالم عند العلماء: مَنْ عَلِمَ خيرَ الخيرين فسبق إليه قبل فوته، وعَلِمَ شرَّ الخيرين فأعرض عنه لئلا يشغله عن الأخير منهما. وعلم أيضًا خير الشرين، ففعله إذا اضطر إليه، وابتُلى به، وعلم شرّ الشرين فأمْعَن[1] فى الهرب منه، واحتجب بحجابين عنه.

وفى هذه المعانى دقائقُ العلوم، وغرائبُ الفهوم، وأدلةٌ للسائلين، وعبرةٌ وآيات للعالمين. فأما شرّ الشرين، ومعرفةُ الخير من الشر، فهو معروف بأدلة العقول، وظواهر العلوم[2].

* * *

(١) أمعن فى الهرب. اشتد وتباعد.

(٢) رحم الله أبا طالب، كان كلامه فى الفصول الماضية متصلاً كسلاسل الذهب، فهو يتكلم بحاله لا بلسانه، وبقلبه لا بعقله، فهى فتوحات من العليم الوهّاب.